بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله على ما أولى وأنعم . وصلّى الله على سيّدنا محمد وسلّم . ﴿ وبعد ﴾ فإنّ لنهوض الأُمم ، أساساً من عوالى الهمم . ومن تطلع إلى الارتقاء فيهات أن يظفر به إلّا إذا شمّر عن ساعده . وميّز صحيح الرأى من فاسده . والرأى الحصيف يُعْوزه التعليم ، حتّى يبلغ مداه من الإجلال والتعظيم . والمربى القدير هو الذى يتفقّد مطالب الحياة من جميع نواحيها ، ويختبر المدارك ويتعهّدها وينمّيها ، ويدرس الميول ويقيم لها وزنا ، ويسوس الفطرة الشريفة ويتّخذ منها عونا . ولقد جرى المربّون أشواطاً بعيدة وراء التعليم وجعلوه مطمح أنظارهم ، ومرمى سهام أفكارهم ، باحثين عن مكنونه ، مفجّرين ينابيع عيونه ، منطلقين كالسهم فى غضونه ، حتّى ذلّلوا مصاعبه ، وهجروا مثالبه

وجدير بكلّ أُمّة تتطلّب المجد أن يكون لها من المجرّبين عضد

تستند إليه ، وتعتمد عليه . وإذا طمحت إلى الفوز بدونه فقد طلبت المحال ، وسارت فى طريق الضلال .

لا يخطئ من يعزو جمودنا ، وضعف إرادتنا ، وظهور آثار الكهولة قبل أوانها فينا ، إلى أمثاله الذين تصدَّوا للتعليم وكانوا بقديمهم مستمسكين ، وأمام النشء واقفين جامدين

قابلت سريًا ومعه ولداه يناهز أحدهما الرابعة ، ويناهز الآخر السادسة من العمر . أمّا أكبرهما فأخذ يتلو على مسمع والده نشيدا ، وكان تعبيره سديدا . وفى غضون ذلك استولت على أخيه الصغير دواعى الاضطراب ، فظنّها أبوه خروجاً عن واجب الآداب ، وعدّ اضطرابه من الرعونة ، وأجبره على التزام السكينة . فصَدَع الصغير بالأمر قليلا ، ثمّ انقلب على عقبه مخذولا ، لأنّ نفسه لا تنفكُّ مطيعة ، لنزعات الطبيعة

فانظر كيف غفل الوالد عن درس الطبيعة الإنسانيّة فى شخص ابنه وفلذة كبده . ولو تنبَّه إلى ما كمن فى ابنه من أنواع الغرائز ، ودَرَس أطوارها ، وتفقَّد آثارها ، لخفَّف عن نفسه لوْعة التعب ، ولهرب من وجه الغضب ، ولاكتسب مودَّة ابنه الذى هو أكثر الناس طلباً لها وحبًّا فيها . نعم إنّ ابنه ذو نفس صغيرة ، لا تصل إلى مستوى نفسه الكبيرة ، وإنّ ميول الابن تتّجه إلى المحسّات الرشيقة ، دون المعانى الدقيقة ؛ فالنشيد الذى يصغى إليه الوالد لرائع معناه ، ليس له ذلك الأثر فى ذهن الطفل حتّى يدعوه إلى الانتباه . ولمّا ضقت

بهذا الموقف ذرعا ، طلبت إليه أن يعيرنى سمعا ، ثمّ توسّلت إليه أن يكل إلىّ أمر ابنه الذى ظنّه عاصيا ، وبشئونه متلهّيا ؛ فأقبلت عليه وقلت : هل تحفظ يا بنىّ ماحفظ أخوك ؟ قال : نعم ، وجرى فى وجهه ماء البشاشة والسرور . هل لك أن تحرّك أعضاءك تمثيلا لهذا النشيد ؟ فترنّح فرحا ، وأخذ يمزُج النشيد بحركات أعضائه ، حتّى استحقّ عطف والده وإعجابه

فلو أنصف الآباء والمعلّمون وأراحوا الطفل من عناء كبير ، وشرّ مستطير ، ووصلوا حبل المودّة بينهم وبينه ، وأقرُّوا عينه ، ورغبوا فى علاج يكون أثره فى النفس جليلا ، لم يجدوا سوى درس الغرائز سبيلا

عرض لأحد العلماء أن يلتمس من أطفال ناحيته مساعدته فى إزالة الحصى المتراكم فى فناء داره ، فنظروا إليه بعين الاشمئزاز وأعرضوا عنه ، وفرُّوا منه ساخرين . فلمّا استعصى عليه الأمر ، ورأى أنّ قوله ذهب صرخة فى واد طرق باب المنافسة ، فنصب هدفا غير بعيد من الفناء وأخذ يحصِبه به ، فلمّا رآه الأطفال أقبلوا عليه بعامل الشوق ، ونافس بعضهم بعضاً فى الرماية ، ونال الرجل أمنيّته بدون أن يشعروا أنّه استخدمهم لمصلحته

إنّ الطفل وديعة بين يدى المعلّم يقوّى جسمه ، ويهذّب عقله ، ويزوّده بما ينفعه فى مستقبل أيّامه ؛ والعاقل من أعطاه من كلّ شىء قدراً مقبولا ، لا يتعدّى حدّ الطاقة ، ولا يصل إلى درجة الاهمال ،

مسدّداً عمله بنظام يكفل الموازنة بين القوى الجسميَّة والعقليَّة والخلقيَّة . ولا مُشاحَّة فى أنَّ تقويم القوى العقليَّة فى وقت لم يتكامل فيه نظام الجسم مضعف له وربَّما قضى عليه .

من المعلّمين فريق سادت عقولَهم المبادئُ الصادقة ، فاتَّخذوا من التشويق شركًا للانتباه . ومتى حادثوا الطفل تنزَّلوا إلى المنزلة الملائمة له لكى يدركوا مبلغ علمه ، ثمَّ يتَّخذوا هذا ذريعة إلى تفهُّم مزاجه فى التعليم . ومنهم فريق طاشوا فاستعملوا سياسة العنف ليملكوا قياد نفسه قسراً ، حتَّى لقد صدق فيهم وصف بديع الزمان الهمذانىّ إذ يقول : « زىٌّ أوحش من طلعة المعلّم »

يحقُّ للمعلّمين أن يدرسوا الشئون النفسيَّة فى أشخاصهم وهى أظهر لهم ، ثمَّ يتلمَّسوها فى النشء ؛ فيُشرفوا عليهم فى الدرس وفى الأكل والاستراضة ، ويتبادلوا الحديث معهم فيما يثير إحساسهم ويَهيج عواطفهم ، ثمَّ يتوارَوا عنهم فيراقبوا حركاتهم من طرف خفىّ ، ليقتبسوا من هذه المظاهر المتنوّعة شواهد يعتمدون عليها فى معرفة ما انطوت عليه السرائر ؛ ويحق لهم زيادة على ذلك أن يتعرَّفوا الأسر وطباعها ليقفوا على سرّ الوراثة وما تنقله المعاشرة ، ليكونوا على بيّنة من الغرائز والميول ؛ ويصبح مايصدرونه من الأحكام سديداً مقبولا

قرَّر الأطبَّاء أنَّ الدواء الذى يؤثّر فى شخص ربَّما لا يؤثّر فى آخر . على أنَّ تشخيص المرض — كيفما مُحّص — عرضة للخطأ . وقلَّما تحقّق الطبيب كنه الداء لتشابه أعراض الأمراض فى الجملة .

ناهيك بما ينجم عن الخطأ فى هذا المجال من إبادة الأرواح. والطبيب النطاسىّ لا يتعجّل فى العلاج ، بل يتريّث حتّى يدرس طباع المريض وعاداته وأوهامه وشئونه الداخليّة ، ليتسنّى له تكييف المرض فيعالجه بحكمة .

لكلّ شخص مأكل خاصّ ، وشئون معيّنة ، وبيئة مميّزة ، واستعداد خاقّ . ولا تكاد تجد تشابهاً تامّاً بين وجهى توءمين ، ولا بين ورقتين من شجرة واحدة . فإذا كان الأطبّاء يحتاطون فى الأمر عند معالجة الأبدان ، فما ظنُّك بحكماء الأرواح الذين يوكل إليهم تهذيب النفوس ؟ فكم تحتاج الأفراد والأمم إلى دراسة واسعة النطاق . وكم يعجز الطبيب ، ويحار اللبيب ، قبل معرفة كنهها وكنه أعراضها وآفاتها . وكم تجربة يزاولها المعلّم الغيور ، الذى يطمع أن يكون عمله ناجحاً حليف الصواب . وكثيراً ما تهن القوى ، وتفتر العزائم ، وتنبهم الأمور ، إذا عُهد إليه فى تعليم طفل واحد . فكيف به إذا زاول تعليم عدد وفير معاً ؟ وكان حريصاً على تفهيمهم دقيق المسائل ، طامحاً إلى تحبيب العلم إلى نفوسهم ، جارياً على سنن العدالة فى الجزاء والعقاب ، على ما بهم من اختلاف بيّن فى المشارب والأخلاق .

لا يفلح المعلّم فى اتّباع ذلك كلّه ، ما لم يدرس أخلاق النشء جميعاً وفرادى . ونحن نعلم أنّ لهم نظاماً عامّاً مشتركاً عماده المساواة ، ونظاماً خاصّاً يرجع الفحص عنه إلى الخبرة الشخصيّة والاجتماعيّة .

وكيفما بلغت براعة القاضى لا يستطيع تقرير الحكم الصائب ،

لأنّ تقدير العقوبة يستلزم درس طبيعة الشخص الذى دلّت القرائن على أنّه مجرم . فقد يكون عنـد تلبُّسه بالجريمة مدفوعاً بباعث قهرىّ لا محيص عنه

لهذا أردت أن أبسط فى هذا الـكتاب ، ما تمسُّ إليـه حاجة المربّين من الغرائز على اختلاف أنواعها ، وطرق تقويمها ، والاستعانة بها فى مطالب التعليم ؛ كاشفاً عن الأغراض الفلسفيّة الدقيقة بالعبارة السهلة المتناوَل ، وبالرسوم المقرّبة للفهم ؛ مُعرضاً عن الاصطلاحات الفنيّة ؛ معوّلاً على الحجج المنطقيّة . ولم أدع مقاماً يستحقُّ الإفاضة إلاّ أفرغت الوسع فى شرحه وتمحيصه والتغلغل فيه بما وصل إليـه علمى ، وانتهى بحثى ، ودلّتنى عليه التجارب . وما توفيقى إلّا بالله .